الإيمان

أ.د/ محمد السيد الجليند

أستاذ العقيدة والفلسفة الإسلامية

دار العلوم – جامعة القاهرة

الإيمان

(أ) الدلالة اللغوية:

من المعلوم أن الألفاظ فى اللغة العربية تتعدَّد دلالتها، وتتنوَّع بحسب السياق الذى جاءت فيه ومراد المتكلم منه، كما أن لكل كلمة معنى لغويًّا توضِّحه معاجم اللغة ومعنى اصطلاحيًّا يتفرد به فى استعمال أهل الفن الخاص.

ولفظ الإيمان له دلالة لغوية عامة بيَّنتها معاجم اللغة العربية، وله دلالة شرعية انفرد ببيانها علماء الكلام والعقيدة.

ومصطلح الإيمان مشتق من الجذر اللغوى (أ م ن)، وتدور هذه المادة اللغوية فى معظم مشتقاتها حول تحقيق معنى (الأمن – الأمان – الأمانة – الهدوء – الطمأنينة – السكينة)، وهذه المعانى كلها تعود إلى حالات النفس والشعور القلبى الذى لا يتحقق إلَّا بتحصيل اليقين الذى هو ثمرة التصديق الجازم.

جاء فى لسان العرب مادة (أ م ن) [مجلد ١٣ ص ٢١ – ٢٧] الأمان، والأمانة بمعنى،... والأمن ضد الخوف، والأمانة ضد الخيانة، والإيمان ضد الكفر، والإيمان بمعنى التصديق ضده الكذب، يقال: آمن به قوم، وكذَّب به قوم، ويقال: أمَّنته (بالتشديد) أذهبت عنه الخوف، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾ [قريش: ٤]، ومنه لفظ آمن بالمد (بهمزتين فى الأصل أأمن) قال الجوهرى: لينتان، فصارت آمن بمعنى صدَّق.

ونقل ابن منظور عن الزجاج [اللسان: ١٢ ص ٢٣] قال: الإيمان إظهار الخضوع والقبول للشريعة، ولما أتى به الرسول ﷺ واعتقاده وتصديقه بالقلب، فمن كان بهذه الصفة فهو مؤمن مسلم، وفى التنزيل العزيز: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾ [يوسف: ١٧]؛ أى مصدق.

وفى تهذيب اللغة للأزهرى: وأما الإيمان فهو مصدر آمن يؤمن إيمانًا فهو مؤمن، واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان هو التصديق، قال تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ

قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ [الحجرات: ١٤].

قال: وهذا موضوع يحتاج الناس إلى تفهيمه وأين ينفصل المؤمن عن المسلم، وأين يستويان، والإسلام إظهار الخضوع والانقياد لما أتى به الرسول ﷺ، وبه يحقن الدم [اللسان: ٢٣/١٢]، فإذا كان مع ذلك الإظهار واعتقاد وتصديق بالقلب؛ فذلك الإيمان بالله ورسوله الذى يقال للموصوف به: هو مؤمن مسلم، وهو الذى يرى أن أداء الفرائض واجب عليه بنفسه وماله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ [الحجرات: ١٥].

والإيمان أمانة فمن صدَّق بقلبه وأدى الشرائع بجوارحه فهو مؤمن مسلم أدَّى الأمانة التى ائتمنه الله عليها فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ومن أدَّى الشرائع بجوارحه ولم يعتقد بقلبه فهو منافق، وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما: أن ﷺ قال: «الإيمان أمانة، ولا دين لمن لا أمانة له»، وفى حديث آخر: «لا إيمان لمن لا أمانة له» [اللسان: ٢٤/١٢].

يتضح مما سبق بيانه أن الإيمان يدور معناه فى اللغة حول تحقيق اليقين النابع عن التصديق الجازم بكل ما أخبر به الرسول ﷺ، وقد ألحق به بعض اللغويين كالأزهرى فى التهذيب ما يترتب على تصديق الرسول ﷺ فى كل ما جاء به من العمل والسلوك بالالتزام بما جاء به الشرع أمرًا ونهيًا.

(ب) المفهوم الشرعى:

تساءل العلماء عن استعمال الألفاظ فى دلالتها الشرعية هل ذلك الاستعمال يمثل خروجات عن أصل وضعها اللغوى. فيكون استعمالها فى معنى جديد وضعه له أهل الاصطلاح استعمالًا مجازيًا؟ وما العلاقة بين هذا الاستعمال المجازى الجديد والمعنى اللغوى الذى وضعه لها أهل اللغة ونقلتها لنا معاجم اللغة؟

هذا التساؤل ظهر أثره واضحًا فى بيان المفهوم الشرعى للفظ الإيمان: هل استعماله فى المعنى الشرعى من باب المجاز اللغوى، أو هو وضع جديد لأهل الاصطلاح، فيكون مفهومه الشرعى حقيقيًّا وليس مجازيًّا؟

وتساءلوا من جانب آخر عن تعريف الإيمان. هل يكون تعريفه ببيانه لماهيته (التصديق) كما اتفق على ذلك أهل اللغة؟ أو يجوز تعريفه باللازم عنه كما يقول المناطقة؟ وظهرت هذه التساؤلات فى الخلاف القائم بين الفرق الإسلامية؛ حيث رجح كل فريق الأخذ برأى مال إليه وأخذ به، واستدل على رأيه بما تيسر له من دلائل فى الكتاب والسُّنة... ومن المفيد أن نشير هنا أولًا إلى دلالة لفظ (الإيمان) فى القرآن الكريم والسُّنة النبوية؛ ليتضح لنا الفرق بين استعمال القرآن واستعمال المتكلمين للكلمة والفرق بينهما.

مفهوم الإيمان فى الكتاب والسُّنة

إن الأصل الذى ينبغى الرجوع إليه لمعرفة أصول العقيدة ومسائلها الأصلية التى تمثل كليات العقيدة هو كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ والوقوف على معانى المفردات والألفاظ الدالة على هذه الأصول واستعمالات القرآن والسُّنة النبوية الصحيحة لهذه المفردات واستجلاء معانيها المرادة فى النصوص الخاصة بذلك.

ولعل أهم ما ينبغى الاهتمام به فى هذا الشأن هو الوقوف على دلالة لفظ الإيمان ومفهومه الوارد فى القرآن الكريم، وفى السُّنة الصحيحة، ذلك أن اختلاف الفرق الإسلامية حول مفهوم مصطلحات (الإيمان، الكفر، الفسق) اختلاف كبير ومتشعب، وكل فرقة تدعى لنفسها احتكار الحقيقة وحدها وما عداها من أقول الفرق الأخرى لا اعتبار له. ومن هنا يجب أن نجعل الضابط لهذا الاختلاف هو المصدر الأساسى للعقيدة الإسلامية ومسائلها والوقوف على معانى هذه المصطلحات ومراد الشارع منها؛ ليكون بذلك مقياسًا للقبول أو الرفض، وليس من الإنصاف أن نجعل رأى فرقة أو شخص هو المقياس للقبول أو الرفض، وعلى هذا سوف نستقرئ مفهوم الإيمان فى القرآن الكريم وما صحَّ من الحديث الشريف؛ ليكون ذلك هاديًا لنا للحكم بصحة الرأى أو خطأه.

وحين نستقرئ مفهوم الإيمان فى القرآن الكريم نجد أن مفهوم اللفظ تتنوع معانيه وتتعدد مفاهيمه حسب السياق القرآنى الذى سيقت فيه الآية تارة، وحسب اختلاف أسباب النزول تارة أخرى.

[١] الإيمان والإسلام:

لقد نشأ السؤال حول مفهوم الإيمان والكفر فى وقت مبكر من تاريخ الفكر الإسلامى؛ لارتباط هذا الموضوع بمسألة مرتكب الكبيرة من جانب، ولأن السؤال حولها قد طرح نفسه بشدة فى علاقة الخوارج بالإمام على ومعاوية إبان مسألة التحكيم من جانب آخر؛ وذلك حين أعلن الخوارج مبدأهم فى أن مرتكب الكبيرة كافر مخلد فى النار، وجعلوا ذلك أصلًا من أصول المذهب، وفارقوا به جماعة المسلمين، ثم طرح السؤال بشكل مباشر فى مجلس الحسن البصرى هل مرتكب الكبيرة مسلم أو كافر، واقتضى ذلك البحث فى ماهية الإيمان وماهية الكفر، وربما كان ذلك قبل ظهور مصطلح علم الكلام وقبل نشأة العلم كفرع من فروع الثقافة الإسلامية.

ولقد تفرَّع عن البحث فى هذه القضية أسئلة كثيرة كان لا بد لعلماء الكلام فيما بعد أن يواجهوا بالإجابة المستمدة من الأصول الأولى الكتاب والسُّنة؛ لأن ذلك يرتبط بتأصيل العقيدة ورسوخ مبادئها على يقين، فما هو الإيمان، وما هو الإسلام، وما العلاقة بينهما، وهل الإيمان يزيد وينقص أم لا؟

كل هذه الأسئلة قد عرض لها علماء الكلام وتباينت الإجابة عنها حسب المبدأ الذى يصدر عنه كل مفكر؛ ولذلك وجدنا خلافًا كبيرًا فى الإجابات عن هذه الأسئلة، قد يصل أحيانًا إلى درجة التناقض بينها؛ لأن من المتكلمين من نظر إلى الدلالة اللغوية لمصطلح الإيمان والإسلام، وجعلها أساسًا لمذهبه فى فهم القضية، ومنهم من نظر إلى المعنى الشرعى الشامل لمفهوم الإيمان والإسلام، وجعل ذلك أساسًا لمذهبه، وترتَّب على الخلاف بين هذه المنطلقات خلاف آخر حول علاقة العمل بالإيمان. هل هو جزء من ماهية الإيمان أو شرط فيه، وإذا كان شرطًا فى الإيمان هل يكون شرطَ كمالٍ للإيمان، أو شرطًا فى صحته وقبوله؟ ونبدأ أولًا فى بيان معنى الإيمان فى القرآن الكريم كما وعدنا.

١- فأحيانًا يرد لفظ الإيمان فى الكتاب والسُّنة خاصًّا بعمل القلوب ولفظ الإسلام خاصًّا بعمل الجوارح، قال تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ [الحجرات: ١٤].

وقال ﷺ: «ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدَّقه العمل»[السنة لأبى بكر بن الخلال: ح ١٢١٢]، وفى حديث جبريل: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإسلام أن تشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» [البخارى: ح ٥٠، ومسلم: ح ١٠٦]. فنجد أن لفظ الإيمان فى الآية والحديث جاء خاصًّا بعمل القلوب، ولفظ الإسلام جاء خاصًّا بعمل الجوارح.

٢- وأحيانًا جاء لفظ الإيمان معطوفًا عليه العمل الصالح فى كثير من آيات القرآن الكريم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾ [البقرة: ٢٧٧]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩﴾ [يونس: ٩]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣﴾ [هود: ٢٣]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾ [الكهف: ٣٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم: ٩٦]، وغيرها من الآيات، مما يدل على المغايرة بينهما فى الدلالة والاستعمال. ومن هنا وجدنا كثيرًا من المتكلمين يطلقون لفظ الإيمان على عمل القلوب فقط، ويطلقون لفظ الإسلام على عمل الجوارح.

٣- وأحيانًا نجد لفظ الإيمان يرد فى القرآن الكريم مطلقًا عامًّا وشاملًا لأعمال القلوب وأعمال الجوارح معًا، وكذلك فى السُّنة النبوية الصحيحة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا

ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴿٨١﴾ [المائدة: ٨١]، ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧]، وفى السنة النبوية قال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة والحياء شعبة من الإيمان» [صحيح مسلم: ح٣٥]، وفى رواية: «أعلاها لا إله إلَّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» [المعجم الأوسط: ح٤٧١٢].

فجاء لفظ الإيمان عامًا وشاملًا لأعمال الجوارح المؤسسة على أعمال القلوب؛ لأن أى عمل يقوم به المؤمن ما لم يكن مؤسسًا على يقين القلب وإيمانه فلا وزن له عند الله وكان نفاقًا ورياءً.

ولقد ترتَّب على تنوُّع موارد لفظ الإيمان فى القرآن الكريم وتعدُّده اجتهاد العلماء فى تخريج المعنى والمفهوم فى كل آية؛ حتى لا يتعارض معنى الإيمان أو يتناقض مع آية أخرى، ووضعوا لذلك ضوابط حاكمة على النحو التالى:

(١) إن لفظ الإيمان إذا ورد مطلقًا فى القرآن الكريم أو فى حديث الرسول ﷺ، فإنه يراد به الإيمان الكامل الشامل لعمل الجوارح وعمل القلب المتضمن للنطق بالشهادتين. كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴿١٥﴾ [الحجرات: ١٥]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴿٢﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿١٠﴾ [الحجرات: ١٠]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴿٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]، وكذلك فى السنة النبوية الصحيحة: « قيل

لرسول ﷺ: أيكون المؤمن جبانا؟ فقال: «نعم»، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلا؟ فقال: «نعم»، فقيل له: «أيكون المؤمن كذابا»؟ فقال: «لا» [موطأ مالك: ح٣٦٣٦]، «من غشنا فليس منا» [سنن ابن ماجه: ح٢٢٢٥]، «المؤمن أخو المؤمن» [صحيح مسلم: ح١٤١٤]، فإن مجيء لفظ الإيمان مطلقًا فى أمثال هذه النصوص يراد به كمال الإيمان الذى يؤتى ثمرته من العمل، فيذعن العبد لأوامر الله ونواهيه وجلًا وخوفًا فى القلوب وانصياعًا وعملًا بالجوارح، فيجمع بذلك بين العناصر الأساسية الثلاثة التى يتكون منها الإيمان الكامل: عمل القلوب، عمل الجوارح، النطق بالشهادتين.

(٢) وقد يعبر فى القرآن الكريم عن الإيمان بلوازمه ومقتضياته من الأعمال الصالحة من البر والتقوى كما فى قوله تعالى: ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]، فقد ذكر فى أسباب نزول الآية أن رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ فقال الرسول ﷺ هذه الآية: ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ...﴾ الآية [البقرة: ١٧٧]، فقال له الرجل: ليس عن هذا سألتك، فقال راوى الحديث: جاء رجل إلى النبى ﷺ، فسأله عن الإيمان فقال له ما قرأت عليك، (يعنى هذه الآية السابقة)، فلما أبى الرجل أن يرضى بالإجابة، فقال له: «المؤمن الذى إذا عمل الحسنة سرته ورجا ثوابها، وإذا عمل السيئة أساءته وخاف عقابها» [العقيدة الطحاوية: ص٣٨٩].

وفى الصحيح أيضًا أن الرسول ﷺ قال لوفد عبد القيس: «آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله، شهادة أن لا إله إلَّا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا الخمس من المغنم» [رواه البخارى] [انظر: الطحاوية: ص ٣٨٩].

ومن المعلوم أن استعمال القرآن لفظ الإيمان مطلقًا دون قيد ولا عطف يكون مفهومه دالًّا على كمال الإيمان كما سبقت الإشارة.

(٣) وأما إذا ورد لفظ الإيمان معطوفًا عليه العمل الصالح – وهذا كثير الورود فى القرآن الكريم فإن العلماء قد خصُّوا لفظ الإيمان هنا بعمل القلوب وهو التصديق واليقين الجازم المعبر عنه بالإيمان بالله ربًّا خالقًا وإلهًا معبودًا. وخصُّوا الإسلام بالعمل الصالح وهو فعل الجوارح وعبروا عنه بالإسلام. وقد جاء فى المسند عن الرسول ﷺ أنه قال: «الإسلام علانية، والإيمان فى القلب» [مسند الإمام أحمد: ح١٣٢٣٨١]، وهذا يدل على المغايرة بين عمل القلب وعمل الجوارح.

(٤) نظر العلماء فى العلاقة بين الإيمان والإسلام؛ حيث وردا فى القرآن الكريم والسُّنة النبوية المطهرة. وتساءلوا هل هما لفظان مترادفان بحيث إذا ورد أحدهما مفردًا يشمل معنى الآخر، أو هما متغايران معنى كما هما متغايران فى اللفظ؟

إن سبب السؤال هنا أن القرآن الكريم قد ذكر اللفظين فى حالات متنوعة، فأحيانًا يذكر الإيمان منفردًا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ۝٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ۝٨١﴾ [المائدة: ٨١].

وأحيانًا يرد الإيمان معطوفًا عليه لفظ الإسلام، قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ۝٣٦﴾ [الذاريات: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ۝١٤﴾ [الحجرات: ١٤]، والعطف يقتضى المغايرة كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فهل هما مترادفان كما يرى ذلك بعض الفرق، أو هما متغايران كما يرى البعض الآخر.

ويترتب على ذلك سؤال آخر: هل إثبات أحدهما يقتضى إثبات الآخر ونفى أحدهما نقيض نفى الآخر، أم لا؟

والذى نشير إليه هنا هو ما أجمع عليه علماء الأمة من أهل الاختصاص:

١- إذا ورد الإيمان مثبتًا فإنه يستلزم معه إثبات الإسلام، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ٢٩﴾ [الرعد: ٢٩]؛ لأن تعبير القرآن بالإيمان مثبتًا يقتضى كمال الإيمان، وهذا لا يكون إلَّا التصديق القلبى، والعمل بالجوارح المعبر عنه بالإسلام.

٢- وإذا ورد لفظ الإيمان منفيًا فإنه لا يستلزم نفى الإسلام بالضرورة؛ لأنه قد ينتفى عمل القلوب وهو التصديق واليقين، ويبقى عمل الجوارح كما فى شأن المنافقين الذين يقومون بأداء الشعائر مثلًا؛ لكن قلوبهم فارغة خالية من التصديق؛ ولذلك قال تعالى فى شان المنافقين: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ١٤﴾ [الحجرات: ١٤].

فدلَّت الآية على أنهم مسلمون وليسوا بمؤمنين. وهذا تفرقة دقيقة ينبغى التنبه لها، كما قال تعالى لهم: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔاًۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ٤١﴾ [المائدة: ٤١].

٣- يترتب على ذلك أنه قد يرد لفظ الإسلام مثبتًا، وإثبات الإسلام لا يقتضى بالضرورة إثبات الإيمان، كما فى حال المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم.

٤- وتبقى الحالة الرابعة حسب القسمة العقلية، وهى هل إذا انتفى الإسلام هل يقتضى ذلك نفى الإيمان؟ هذا ليس بالضرورة، فقد يعجز المرء عن إعلان إسلامه

أو الجهر به؛ لكن قلبه مصدق ومؤمن كما فى حال بعض أهل الصفة، وكما فى حال كثير من المضطرين إلى كتمان عقيدتهم وعدم إظهار الشعائر وممارسة الطقوس الدينية، ولعل فى واقعة عمار بن ياسر وأخته حين أكرههم المشركون على النطق بكلمة الكفر ما يؤيد ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦]، والله أعلم.

وكذلك الأمر إذا ورد لفظ الإسلام منفردًا دون الإيمان فإنه يشتمل معه معنى الإيمان كما فى قوله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» [صحيح البخارى: ح١٠]، وقوله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» [صحيح مسلم: ح٢٥٨٠]. وإذا اجتمع اللفظان معطوفًا أحدهما على الآخر، فإن العطف يقتضى المغايرة بين مفهوم اللفظين فيكون معنى الإيمان خاصًّا بعمل القلوب والإسلام خاصًّا بعمل الجوارح، كما فى قوله ﷺ: «الإسلام علانية، والإيمان فى القلوب» [سبق تخريجه]، وقوله سبحانه: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾ [الذاريات: ٣٦].

ومن هنا نجد المتكلمين يقولون: إن هذين اللفظين إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، بمعنى أنه إذا اجتمعت الكلمتان فى سياق واحد، افترق مفهوم كل منهما عن الآخر؛ حيث يدل الإيمان على ما فى القلب من تصديق ويقين، ويدل لفظ الإسلام على عمل الجوارح.

وإذا انفرد أحدهما فى سياق ولم يذكر اللفظ الآخر فإنه يكون شاملًا لمعنى عمل القلوب وعمل الجوارح معًا.

وهذا هو المشهور بين علماء الكلام إن الإيمان عمل القلوب يصدقه عمل الجوارح، وقد خصَّ العلماء عمل الجوارح باسم الإسلام عند اجتماعهما كما سبق القول، وفى القضية تفصيل

وآراء لا يحتاج المقام لها، وإنما أردنا التركيز هنا على ما صحَّ به القول تعبيرًا عما جاء فى كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ.

الإيمان يزيد وينقص:

أجمع أهل السُّنة والجماعة على القول بأن الإيمان يزيد وينقص، سواء كان مفهوم الإيمان خاصًّا بعمل القلوب أو شاملًا لعمل القلوب وعمل الجوارح معًا، لخص الأشعرى ذلك فى [أصول أهل السُّنة ص ١٥٧ بتحقيق د/ محمد السيد الجليند] وأجمعوا على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وليس نقصانه عندنا شكًّا فيما أمرنا بالتصديق به، ولا جهلًا به؛ لأن ذلك كفر، وإنما هو نقصان فى مرتبة العلم وزيادة البيان، كما يختلف وزن طاعتنا عن وزن طاعة النبى ﷺ وإن كنا جميعًا مؤدين للواجب علينا [الرسالة ص ١٥٨].

وأجمعوا على أن المؤمن بالله تعالى وسائر ما دعا النبى إلى الإيمان به لا يخرجه عنه شيء من المعاصى، ولا يحبط إيمانه إلا الكفر، وإن العصاة من أهل القبلة مأمورون بسائر الشرائع غير خارجين عن الإيمان ولا بمعاصيهم، وقد سمَّى الله عصاةَ أهل القبلة مؤمنين بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ٦﴾ [المائدة: ٦]، فلو كانوا خرجوا من الإيمان بمعاصيهم كما قالت القدرية؛ لما تعلَّق عليهم فرض الطهارة، وكان خطاب الله تعالى منصرفًا بمعاصيهم إلى المؤمنين دونهم.

وأجمعوا على ألَّا نقطع على أحد من عصاة أهل القبلة فى تلك الدار بالنار، ولا على أحدٍ من أهل الطاعة بالجنة إلَّا من قطع عليه الرسول ﷺ، وقد دلَّ الله عز وجل على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ

ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]، ولا سبيل لأحدٍ إلى معرفة مشيئته تعالى إلَّا بخبره، وقد قال ﷺ: « لا تنزلوا أحدًا من أهل القبلة جنةً ولا نارًا» [الرسالة ١٥٨ – ١٥٩].

وقد لخص الأشعرى فى النص السابق رأى المحدثين والسلف فى القضية، وأن الإيمان يزيد بزيادة الطاعة وزيادة البيان واليقين وهذا شامل لمن جعل مفهوم الإيمان هو التصديق واليقين، فإن زيادة البيان يترتب عليها اليقين، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤]، وشامل كذلك لمن جعل مفهوم الإيمان التصديق والعمل معًا، فكلما ازداد عمل المؤمن بالفرائض والنوافل زاد إيمانه.

أما موقف الفرق الكلامية فكان مختلفًا عن ذلك بناءً على اختلافهم فى مفهوم الإيمان وحقيقته، وهل العمل جزء من الإيمان أو شرط له. وإذا كان العمل شرطًا فى الإيمان فهل هو شرط فى صحة الإيمان، كما كان الوضوء شرطًا فى صحة الصلاة، بحيث إذا تخلف الوضوء فلا تصح الصلاة. أو هو شرط فى كمال الإيمان بحيث إذا تخلف العمل فإن أصل الإيمان يكون موجودًا، ولا يخرج العاصى بمعصيته عن الإيمان، كما أشار الأشعرى فى النص السابق.

فالذى عليه أهل السُّنة والجماعة أن العمل ليس جزءًا من ماهية الإيمان الذى هو التصديق الجازم بكل ما جاء به الرسول ﷺ قولًا وعملًا، وإنما هو شرط كمال للإيمان؛ ولذلك فإن العاصى عندهم مؤمن وليس بكافر، إن تاب تُقبَل توبته إن شاء الله، وتنفعه شفاعة النبى ﷺ كما قال: «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» [سنن أبى داود: ح٤٧٣٩]، وقد نص القرآن صراحة على القول الفصل فى هذه المسألة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا هو رأى علماء الأمة المعتبرين شرعًا فى حق مرتكب الكبيرة.

وشذَّ عن ذلك الخوارج، فجعلوا العمل داخلًا فى ماهية الإيمان وجزءًا منه، فإذا تخلَّف العمل، أو ارتكب المرءُ كبيرةً حق عليه الوعيد، كما جاء فى القرآن وخرج بذلك عن مسمَّى الإيمان، وهو بذلك كافر اسمًا ومسمَّى لفظًا ومعنى، مخلدً فى النار، لا تنفعه الشفاعة يوم القيامة.

ويرى الإباضية (فرقة تنسب إلى أباض من الخوارج) فيقولون: إن مرتكب الكبيرة يُسمَّى كافرًا لكنه كفر نعمة، وليس كفر ملة.

موقف الفرق من الإيمان:

سوف نتناول هنا آراء الفرق الكبرى فقط بالحديث خاصة الفرق التى لها امتداد تاريخى مؤثر فى مسار الثقافة الإسلامية فى عصرنا الحاضر؛ حتى يتضح للقارئ الكريم الفرق الجوهرى بين مفهوم الإيمان وحقيقته الشرعية عند أهل السُّنة والجماعة والفرق الأخرى التى شذَّت بفكرها عن وسطية العقيدة الصحيحة، واختطت لها منهجًا خاصًّا بها وجد له أتباعًا من الشباب الذين يتمتعون بعاطفة دينية قوية، ولكن ينقصهم كثير من العلم الشرعى النافع الذى ينير لهم طريق الهدى وبيان مقاصد الوحى الكبرى فى قضايا الاعتقاد والإيمان بمسائلها، وكلها تنتمى إلى عالم الغيب الذى لا مدخل للعقل فى القول به نفيًا أو إثباتًا إلَّا عن طريق الوحى المعصوم. وسوف نتناول عرض آراء الفرق بإيجاز بعيدًا عن التفصيلات الجدلية التى سلكها علماء الكلام، والتى ساعدت على خلق روح التعصب للرأى والجدلية والتطرف فى الأحكام.

السلف والمحدثون:

السلف ومعهم المحدثون يرون أن الإيمان الشرعى لا بد أن تكتمل فيه عناصر ثلاثة: فهو نطق باللسان، وتصديق بالقلب، وعمل بالجوارح [المقالات: ١/٣٩٢-٣٩٣]، ولا يكتمل إيمان المرء إلَّا بهذه العناصر الثلاثة، فينطق اللسان بالشهادتين، ويصدق القلب؛ ولذلك فإن الإيمان عندهم يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى، كما قال تعالى فى حق المؤمنين بأنهم :﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾ [الفتح: ٤].

رأى الشيعة:

(أ) الشيعة الروافض:

يرى فريق من الشيعة الروافض أن حقيقة الإيمان هو الإقرار بالله وبرسوله ﷺ، ومعرفة الإمام ومعرفة كل ما جاء به الرسول ﷺ، وما جاء به الإمام، ومعرفة الإمام ضرورة عندهم، فمن أقرَّ وآمن بالله ورسوله ولم يعرف الإمام فهو مسلم وليس بمؤمن [المقالات ٥٣/١].

ومن الروافض من يرى أن الإيمان عبارة عن جميع الطاعات، والكفر جميع المعاصى، ويثبتون الوعيد لمرتكب الكبيرة [المقالات: ٥٤].

ويشرحون رأيهم هذا بالتفصيل فى مراجعهم الشيعية عن طريق تأويل القرآن أحيانًا وأحيانًا أخرى عن طريق الآثار، ونسبتها إما إلى الرسول ﷺ، وإما إلى أحد أئمة أهل البيت؛ ليستدلوا بها على أن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية.

(ب) الزيدية:

ويحكى الأشعرى فى [المقالات ٧٢/١-٧٣] مثل ذلك القول عن الزيدية، فيقول: منهم من يرى أن الإيمان عبارة عن المعرفة بالقلب والإقرار باللسان واجتناب المعاصى، وجعلوا مواقعة المعاصى كفرًا وليس بشركٍ ولا جحود؛ بل هو كفر نعمة، ومنهم من يزعم أن الإيمان جميع الطاعات، فجعلوا العمل جزءًا من حقيقة الإيمان، وليس ارتكابه ما جاء فيه الوعيد كفرًا، ثم يقول: وأجمعت الزيدية أن أصحاب الكبائر كلهم معذبون فى النار خالدون فيها مخلدون أبدًا لا يخرجون ولا يغيبون عنها [المقالات ١/ ٧٤]، وهذا هو قول الخوارج أيضًا فى مرتكب الكبيرة.

(٢) الخوارج:

لم يفرق الخوارج بين مفهوم الإيمان والإسلام، وجعلوهما بمعنى واحد، وهذا يعنى أن العمل عندهم ركن من الإيمان، وأن الإيمان ليس قاصرًا على تصديق القلوب فقط، وإنما يشمل تصديق القلب وعمل الجوارح، والعمل ركن من الإيمان، وأن الإيمان كلٌّ لا يتجزأ، فإذا ذهب بعضه ذهب كله، وزال عن مرتكب الكبيرة اسم المؤمن؛ ليحل اسم الكافر [انظر: مقالات الأشعرى ١٠١/١]، وأن ارتكاب الكبيرة يترتب عليها نفى صفة الإيمان، وتدخل صاحبها تحت مسمى

الكفر، وقد استدل الخوارج على رأيهم هذا بآيات الوعيد الواردة فى حق الظالم والفاسق والكافر، وتأولوها على مذهبهم الخاص، كما استدلوا من السُّنة النبوية بأحاديث مثل قوله ﷺ: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مسلم، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» [صحيح البخارى: ح٥٥٧٨]، ولم يفهموا أن التوبة تجب ما قبلها، وأهملوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء: ٤٨].

ولقد تفرَّع عن موقف الخوارج من الإيمان وحقيقته أنهم أنكروا الشفاعة لأهل الكبائر العصاة من أمة محمد ﷺ؛ لأنهم حكموا بكفرهم، وترتب على ذلك أن قالوا: إذا مات مرتكب الكبيرة بدون توبة مات كافرًا، فلا يصلى عليه، ولا يدفن فى مقابر المسلمين، ولا تجب فيه الشفاعة.

وهذا يخالف ما جاء عن الرسول ﷺ: «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» [سبق تخريجه].

المرجئة:

أما المرجئة فيرون أن الإيمان هو المعرفة بالله ورسوله فقط، أما الإقرار باللسان وأعمال الجوارح ليست من الإيمان عندهم، ويقترب منهم مذهب الجهمية؛ حيث يقصرون معنى الإيمان على المعرفة فقط، وأما الكرامية فيرون أن الإيمان هو مجرد الإقرار باللسان دون التصديق بالقلب.

وقد حكى الأشعرى فى [المقالات ١/١٣٢-١٣٥] أن الإيمان عندهم هو مجرد المعرفة بالله وبرسله وبجميع ما جاء به من عند الله فقط، وأن ما سوى ذلك من الإقرار باللسان والاعتقاد بالقلب والعمل بالجوارح فليس من الإيمان، وزعموا أن الكفر هو الجهل بالله تعالى وعدم معرفته، وهذا هو قول جهم والجهمية من بعده، فالإنسان إذا أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه أنه لا يكفر عندهم، والإيمان عندهم لا يتبعض ولا يتفاضل؛ لأنه مجرد المعرفة، والإنسان إما عارف باله وبرسله فيكون مؤمنًا، وإما جاهل بالله وبرسله فيكون كافرًا، ولا واسطة بينهما، ويجمع المرجئة والجهمية على ذلك؛ لكنهم اختلفوا فى الإجابة على السؤال التالى:

هل الخضوع لله ومحبته والتعظيم له ولأوامره هل هى من الإيمان أم لا؟ وبعضهم جعل ذلك من الإيمان، وبعضهم نفى ذلك، وقال: لا إيمان إلا المعرفة. [المقالات ١/١٣٣-١٣٧].

ويعتبر الأشعرى أن الكرامية (أتباع محمد بن كرامة) وأبا حنيفة [ص١٣٨] من المرجئة، ويحكى أن الإيمان هو إقرار وتصديق باللسان دون القلب، وأنكروا أن تكون معرفة القلب أو شى غير التصديق باللسان إيمانًا، وزعموا أن المنافقين الذين أقروا بلسانهم ولم تؤمن قلوبهم فى عهد الرسول ﷺ كانوا مؤمنين على الحقيقة؛ لأن الكفر عندهم هو الجحود والإنكار باللسان فقط [المقالات ١/١٤١].

المعتزلة:

ويقترب رأى المعتزلة من رأى الخوارج فى أن العمل جزء من الإيمان، وينقل الأشعرى فى كتابه المقالات [١/٢٢٦ – ٢٦٦٧] عن المعتزلة أنهم يقولون: إن الإيمان عبارة عن جميع الطاعات واجتناب المعاصى، وأن المعاصى على ضربين: كبائر وصغائر، وأن الكبائر على ضربين، منها ما هو كفر، ومنها ما هو ليس بكفر، يقول هشام الفوطى: إن الإيمان على ضربين: إيمان بالله، وإيمان لله، وهو جميع الطاعات، فرضها ونفلها، والإيمان بالله ما كان تركه كفرًا بالله.

ويرى النظام أن الإيمان هو ترك جميع المعاصى، والكبائر هى ما جاء فيها الوعيد بالعقاب صريحًا [المقالات ١/٢٦٦، شرح الأصول الخمسة ٣/٧٠٦- ٧٠٧].

لكنهم يختلفون عن الخوارج فى القول بأن ذهاب بعضه لا يعنى ذهاب كله؛ لأن المعتزلة يرون أن الإيمان مجموع الطاعات من الفرائض والنوافل وجميع أعمال البر والتقوى، وذهاب بعض هذه الأعمال لا يعنى ذهابها كلها [شرح الأصول الخمسة ص ٧٠٦-٧٧]، ومن هنا فإن المعصية إذا وقعت من المؤمن لا تدخل صاحبها تحت مسمى الكافر، ولكنها تخرجه من مسمى المؤمن، فالعاصى عندهم ليس مؤمنًا ولا كافرًا، وهو فى منزلة بين المنزلتين.

وجمهور المعتزلة يقولون بهذا الرأى ابتداءً من النظام والعلاف والجبائيين والقاضى عبد الجبار، فهم يتفقون مع الخوارج فى أن العمل جزء من الإيمان. ويختلفون عنهم فى أن المعصية لا تدخل صاحبها تحت مسمى الكفر وذهاب بعض الإيمان لا يعنى ذهاب كله.

الأشاعرة:

والأشاعرة يجمعون على القول بأن الإيمان هو التصديق بالقلب؛ لأن اللغة التى تزل بها القرآن دلت على أن الإيمان هو التصديق [أصول أهل السُّنة والجماعة المسماة برسالة أهل الثغر ص١٥٧-١٥٨]، قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ١٧﴾ [يوسف: ١٧]؛ أى بمصدق لنا، وأن الفاسق والمذنب لا يخرجه فسقه وذنبه من مسمى الإيمان كما قالت الخوارج والمعتزلة، وإنما هو فاسق بفسقه مؤمن بإيمانه، وقد أشار إلى ذلك أبو الحسن الأشعرى فى رسالته «اللمع»؛ حيث قال: إن قال قائل ما الإيمان عندكم بالله تعالى؟ قيل له: هو التصديق بالله ، وعلى ذلك إجماع أهل اللغة التى أنزل الله بها القرآن، قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ١٧﴾ [يوسف: ١٧]؛ أى: بمصدقٍ لنا، وقالوا جميعًا: فلان يؤمن بعذاب القبر والشفاعة. يريدون يصدّق بذلك، فوجب أن يكون الإيمان هو ما عليه أهل اللغة إيمانًا، وهو التصديق ، والفاسق من أهل القبلة فاسق بفسقه مؤمن بإيمانه، ومن كان منه كُفْر فهو كافر، ومن كان منه تصديق فهو مصدّق، وأبطل الأشعرى قول المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين، وسار على رأى الأشعرى تلامذته من بعده ابتداءً من الباقلانى فى التمهيد [ص٣٩٠-٣٩٨]، والغزالى وابن العربى والرازى فى معظم كتبه، والأشاعرة لا يعتبرون العمل جزءًا من الإيمان بناءً على رأيهم فى دلالة اللغة لمفهوم الإيمان، وأن اللغة التى نزل بها القرآن قصرت معنى الإيمان على مجرد التصديق بالقلب دون العمل، فليس العمل داخلًا فى مفهوم الإيمان عندهم، ولكنهم تكلموا عن علاقة العمل بالإيمان، وهل هو شرط فى كمال الإيمان، أو هو شرط فى صحة الإيمان كما أن الوضوء شرط فى صحة الصلاة. على خلاف بينهم فى تفصيلات هذه القضية؛ لكن الإيمان الشرعى عندهم لا يكتمل معناه إلَّا بالعمل الصالح؛ لأنهم يجمعون على أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بكثرة الأعمال الصالحة، كما يزيد بكثرة الأدلة التى يترتب عليها زيادة اليقين فى القلب.

الماتريدية:

يرى الماتريدى أن الإيمان تصديق بالقلب فقط مخالفًا بذلك الذين قالوا: إن الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، ويستدل على رأيه بأدلة السمع والعقل أيضًا، يقول: أحق ما يكون به الإيمان فى القلوب بالسمع والعقل جميعًا، أما السمع فقوله تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ [الحجرات:١٤]؛ حيث أبطل أن يكون كلامهم باللسان إيمانًا؛ لأنه لم يدخل الإيمان قلوبهم، ولو كان الإيمان باللسان كافيًا لكان كلامهم به إيمانًا، ويقدّم أدلة كثيرة من القرآن الكريم يردُّ بها على الذين قالوا: إن الإيمان إقرار باللسان فقط، وكذلك الذين قالوا: إن العمل بالجوارح جزء من الإيمان.

وأما أدلة العقول فهو يقول: إن الإيمان دين، والدين اعتقاد، وما به الاعتقاد هو القلب، وليس اللسان، وليس عمل الجوارح. ودلالة اللغة تؤكد له رأيه؛ حيث إن الإيمان فى اللغة التصديق بالقلب كما فى قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: ١٧]، ويشير الماتريدى إلى قضية مهمة جدًّا؛ حيث يصرح بأن الاعتقاد لما كان من أعمال القلوب؛ فإنه لا يصح إيمان مع الإكراه أو القهر على الاعتقاد؛ لأنه لا يجرى سلطان أحد من الخلق على ما فى القلب، وقد يكون الإنسان بلا لسان ينطق به به لنسمع منه هل هو مؤمن أم لا مع أن قلبه يكون معتقدًا مؤمنًا بالله ورسوله ﷺ؛ وذلك كله يؤكد أن القلب هو محل الاعتقاد وليس اللسان.

وقد يكره المرء على أن ينطق لسانه بكلمة الكفر فى الوقت الذى يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان بالله ورسوله ﷺ.

وقد ردَّ الماتريدى آراء المرجئة والجهمية القائلين بأن الإيمان هو المعرفة فقط، والإرجاء عنده نوعان: محمود، ومذموم. فالإرجاء المحمود هو إرجاء أصحاب الكبائر إلى يوم القيامة، وعدم القطع لهم بالجنة أو النار؛ لأنه قد تنالهم شفاعة الرسول ﷺ؛ حيث قال: «شفاعتى

لأهل الكبائر من أمتى، فيرجأ أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم، وقبل فيهم الشفاعة» [التوحيد: ص ٢٨٢، والحديث سبق تخريجه].

ويحكى الماتريدى عن المعتزلة قولهم: إن المرجئة هم الذين أرجأوا أصحاب الكبائر، ولم ينزلوهم نارًا ولا جنة، ويحكى هذا عن أبى حنيفة أيضًا [التوحيد: ص ٢٨٢]، ويوافق الماتريدى المعتزلة على قولهم السابق، ويقول: إن هذا النوع من الإرجاء حق لزم القول به [التوحيد: ص٢٨٣].

أما الإرجاء المذموم فيقصره الشيخ على القدرية والجبرية؛ لورود الذم لهم فى الحديث: «صنفان من أمتى لا تنالهم شفاعتى: القدرية، والمرجئة» [المعجم الأوسط: ح٥٨١٧]، ويفسر المرجئة هنا بالجبرية لمقابلتهم بالقدرية [التوحيد: ص ٢٨٤].

ويرى أن الإيمان مخلوق والأصل عنده ترك الاستثناء؛ لأن الأصل عنده قطع القول بالإيمان وبالتسمى به بالإطلاق وترك الاستثناء فيه، ويرد على القائلين بالاستثناء فى الإيمان من المعتزلة والخوارج والحشوية [التوحيد: ص٣٦٠]، والإسلام والإيمان عنده شيء واحد فى أمر الدين عند التحقيق وإن اختلفا فى اللسان واللغة.

الاستثناء فى الإيمان:

تناول العلماء قضية الاستثناء فى الإيمان فقالوا: هل يجوز أن يقول المرء: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى؟ وهذا السؤال يعتبر أحد نتائج البحث فى تعريف الإيمان وماهيته وهل هو مرادف للإسلام أو مغاير له، وللعلماء فى ذلك أقوال ثلاثة [العقيدة الطحاوية ص٣٩٥ – ٣٩٦]:

(١) رأى يقول بوجوب الاستثناء، وقد أورد القاضى عياض هذا القول؛ لأنه لو كان ذلك واجبًا لكان قطعًا بالقول إنه فى الجنة. وهذا خلاف ما عليه أهل السُّنة والجماعة؛ لأن ذلك أمر يتعلق بالمستقبل الذى يموت عليه المرء. وهذا غيب لا يعلمه إلَّا الله [مجموع الفتاوى ٦٦٦/٧ – ٦٦٧]، فضلًا عن أن فى ذلك تزكية للنفس، والله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾ [النجم: ٣٢].

(٢) الرأى الثانى: القول بأن ذلك حرام وهو رأى من يجعل الإيمان والإسلام شيئًا واحدًا، ولا فرق بينهما، كالخوارج والمعتزلة، ويقولون: إن الاستثناء بقول المرء: أنا مؤمن إن شاء الله نوع من الشك، والشك فى الإيمان كفر بما جاء به الرسول ﷺ، وتناول أصحاب هذا الرأى أدلة القائلين بالوجوب بالتفنيد والرد عليها، فقالوا: إن الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: ٢٧]، بأن المراد بذلك تحقيق الأمن والأمان عند دخول البيت الحرام، وليس الشك فى الدخول أو عدم الدخول.

(٣) الرأى الثالث وهو القول الصحيح فى ذلك؛ حيث يرى أصحابه أنه يجوز القول به، ويجوز تركه، فإذا أراد المرء بالاستثناء الشك فى إيمانه فإن ذلك حرام، ولا يجوز القول به.

وإن أرد بالاستثناء أنه مؤمن إن شاء الله أى من جماعة المؤمنين الذين مدحهم القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤]، وفى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥]، فكل ذلك يجوز الاستثناء فيه، ويكون الاستثناء أيضًا بمعنى الإعلان عن عدم العلم بالعاقبة؛ لأن ذلك غيب لا يعلمه إلَّا الله، وكذلك من استثنى تعليقًا للأمر بمشيئة الله لا شكًّا فى الإيمان [العقيدة الطحاوية ٣٩٧- ٣٩٨].

القول فيما أجمع عليه أهل السُّنة والجماعة فى المسائل الخلافية:

وقد جمع القرآن الكريم أصول هذه العقيدة فى قوله تعالى: ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ

قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧]، وفى آخر سورة البقرة يقول سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وفى الحديث المتفق عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْماً لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ». قَالَ مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: «الإِسْلاَمُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤَدِّىَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ». قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ الْبُهْمُ فِى الْبُنْيَانِ، فِى خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ ». ثُمَّ تَلاَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]. قال: ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ: «رُدُّوهُ». فَلَمْ يَرَوْا شَيْئاً. فَقَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ» [البخارى: ح ٥٠، ومسلم: ح ١٠٦].

وأجمعت الأمة خلفًا عن سلف على الإيمان بهذه الأصول، واتفقت عليها كلمتهم وتلقاها الأئمة بالقبول والإذعان فدعوا إليها؛ وحرروا مسائلها وضبطوا أدلتها وبراهينها جامعين فيها بين أدلة النقل الصحيح والعقل الصريح، مهتدين بنور الوحى ونور العقل دون مظنة للتعارض أو التضاد بين النورين، معتقدين أن المؤمنين بهذه العقيدة هم أهل الولاية لله ورسوله، وأن الإيمان بها اسم جامع لاعتقاد القلب ويقينه، ونطق اللسان وإقراره، وعمل الجوارح وإذعانها،

وأن يقين القلب بها هو الأساس لعمل الجوارح واشتغالها بالأوامر فعلاً، والنواهى تركًا وكرهًا، ومؤمنين أن كمال الإيمان وتمامه؛ لا يكون إلا بالجمع بين أعمال القلب تيقنًا وإيمانًا، وإعمال الجوارح خضوعًا وإذعانًا.

وأجمعوا على أن الإيمان يزيد بكثرة الطاعات وينقص بالمعاصى وبالموبقات، وإن المعاصى لا تخرج المؤمنين عن الملة صغيرة كانت المعصية أو كبيرة؛ ما دام القلب بالله مؤمنًا، وبالأوامر والنواهى مقرًا ومتيقنًا، ولا كفران إلا بجحود ونكران لما هو معلوم من دين الله بالضرورة.

وأهل القبلة هم أهل الملة، يصلى وراء البر منهم والفاجر، ووراء مستور الحال، ولا يقطع على واحد منهم بالجنة أو النار: «فمن صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم له ذمة الله ورسوله» [البخارى: ح٣٨١].

وشفاعة الرسول حق لأهل الملة، تنال أهل الكبائر، فلا يحرمون من شفاعته صلى الله عليه وسلم، قال ﷺ: «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» [مسند الإمام أحمد: ح١٣٢٢٢].

وأصل الإيمان بالله تعالى يتضمن الإيمان بوجوده سبحانه، والإيمان بوحدانيته وأنه واحد فى ذاته، فلا ند له، وواحد فى أسمائه، فلا مسمى له، وواحد فى صفاته، فلا مثيل له، وواحد فى أفعاله، لا شريك له، وجماع توحيده سبحانه، أن يقر المؤمن بإفراده سبحانه بالعبادة والإخلاص فى القصد فى طاعته فيما أمر ونهى.

وأنه سبحانه أول بلا ابتداء، وآخر بلا انتهاء، وأدلة وجوده سبحانه فاقت الحصر فلا يحيط بها عد. فقد فطر القلوب على معرفته، وجبلها على محبته والإيمان به، وجاء الوحى فزاد الفطرة نورا وهداية، ونبهها إلى ما هو مغروز فيها وأصيل فى بنيتها، قال النبى ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» [مسند الإمام أحمد: ح٧١٨١]، ثم نبه الوحى العقول إلى دلائل وجوده سبحانه، ودلائل وحدانيته بما أبهر العقول، وحير الألباب من الآيات المبثوثة فى الآفاق والأنفس؛ فى كتاب الكون المنظور، وخاطبهم بلغة البرهان ودلائل اليقين: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ

مُّثۡقَلُونَ﴿٤٠﴾ [الطور: ٣٩- ٤٠]، ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ١١].

كما نبه القرآن الكريم إلى الإيمان بصفات الله العليا، وأسمائه الحسنى، كما ورد بها الذكر الحكيم من غير تحريف ولا تبديل، سواء فى ذلك؛ صفات الذات، كالسمع، والبصر، والعلم، والإرادة، والحياة، أم صفات الأفعال، كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، أم الصفات الخبرية، كالمجيء، والإتيان، والاستواء...

وأنه تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، فأثبت لنفسه أصل الصفات، ونفى المماثلة مع خلقه، فيؤمن المسلم بجميع ما وصف نفسه به فى كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ دون تساؤل عن الكيف فيثبتونها على ما يليق به سبحانه من الكمال والجلال دون تمثيل، ولا تعطيل، ولا تحريف، وكما أن ذاته ليس كمثلها شيء، فإن صفاته سبحانه ليس كمثلها شيء، وإن القول فى صفاته وأسمائه؛ كالقول فى ذاته سبحانه، يحتذى فيها حذوه، فما أثبته القرآن أثبتوه، وما نفاه القرآن نفوه دون سؤال عن الكيفية، فلا يحيط بها وهمٌ، وهم مجمعون على الإثبات بلا تمثيل، والتنزيه بلا تعطيل.

الإيمان بالغيب:

وأجمعوا على الإيمان بكل ما أخبر به القرآن، وجاءت السنة الصحيحة من أمور الغيب:

ومنها الإيمان بالملائكة، وأنهم عباد الله مكرمون مفطورون على طاعته: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦]، وأنهم مخلوقون من نور، وهم مكلفون بما أمرهم الله به من أعمال، فمنهم حملة العرش: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١٧]، ومنهم حملة الوحى كجبريل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، ومنهم ملك الموت، ومنهم خازن الجنان، ومنهم الحفظة، والكرام الكاتبين.

ومن الإيمان بالغيب؛ الإيمان بعالم الجن، وأنهم مكلفون، فمنهم المسلم والكافر، قال تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴿١﴾ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ

فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴿٢﴾﴾ [الجن: ١-٢]، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا﴿١٤﴾﴾ [الجن: ١٤].

ومن الإيمان بالغيب؛ الإيمان باليوم الآخر، وبالبرزخ، وعذاب القبر، وأن القبر أما روضه من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

وأن القبر أول منازل الآخرة، وللساعة أشراطها وعلامتها؛ منها الأشراط الكبرى، كخروج الدابة، ونزول المسيح عيسى ابن مريم يدعو إلى الإسلام، وقبله نزول المسيخ الدجال، ومنها العلامات الصغرى، كبعثة محمد ﷺ، وتطاول رعاة الإبل فى البنيان.

ومن مسائل اليوم الآخر الإيمان بالبعث والحساب، والجنة والنار، والصراط والميزان، والحوض، لورود النصوص الصحيحة الصريحة بذلك.

الإيمان بالقدر:

والإيمان بالقضاء والقدر؛ الذى هو سر من أسرار الله فى خلقه، حجب علمه عن النبى المرسل والملك المقرب، فلا يعلمه إلا هو، والإيمان به أصل فى الإقرار لله بربوبيته على خلقه قضاء وقدرًا وتدبيرًا، وإرادة وحكمة ومشيئة، فنؤمن بالعلم الشامل لكل ما كان وما يكون وما هو كائن، وأن كل ذلك مكتوب ومقدر فى اللوح المحفوظ وفقًا لعلمه السابق بذلك، وأن مشيئته نافذة فى خلقه إلى يوم القيامة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فيهدى المؤمنين به تفضلاً منه ورحمة، ويضل من عصاه عدلاً منه وحكمةً، فلا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره، وإن للعباد مشيئة: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠]، وما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم لكن ليصيبه، وما قضى الله به كونًا فهو كائن لا محالة، ولا يجوز لأحد الاحتجاج بالقدر على معصيتة ارتكبها أو سيئة نالها. لأن تلك الحجة داحضة غير نافعة لأصحابها، وقد

جمع الإمام أبو الحسن الأشعرى وغيره؛ هذه الأصول فى رسالته إلى أهل الثغر لما سألوه أن يبين لهم أصول الإيمان التى أجمع عليها أهل السنة والجماعة، ولا خلاف بين الأئمة حولها، فذكرها ﷺ مسألة مسألة. فذكر فى مقام الألهيات ما أجمع عليه سلف الأمة من الإيمان بوجود الله، ووحدانيته، وأسمائه وصفاته، فذكر صفات الذات، والصفات الخبرية، وقال إن صفاته سبحانه كلها على الحقيقة ولا شيء منها على المجاز، لأن المجاز نوع من الكذب [انظر: رسالة أبى الحسن الأشعرى، ص ٦٥]، وأن وصفه بها من غير تكييف، وأن الإيمان به واجب وترك التكييف لازم [رسالة أبى الحسن الأشعرى ص ٧٢]، وأن أمره وقوله غير محدث ولا مخلوق، وهو سبحانه وتعالى يرضى عن الطائعين ويحبهم، ويغضب على العصاة ويسخطهم، وأنه فوق سماواته على عرشه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠]، واستواؤه على عرشه ليس استيلاء لأنه سبحانه لم يزل مستوليًا على كل شيء، وأن المؤمنين يرونه يوم القيامة على ما أخبر سبحانه:﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وإنه يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا يسأل عما يفعل لأنه سبحانه فعال لما يريد، وإنه عادل فى جميع أفعاله وأحكامه ساءنا ذلك أم سرنا، نفعنا ذلك أم ضرنا، وأنه قدر جميع أفعال خلقه وآجالهم وأرزاقهم قبل خلقه لهم، وأثبت ذلك فى اللوح المحفوظ، كما قال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ [القمر: ٥٢]، وأنه سبحانه كلَّف عباده فعل الطاعات ونهاهم عن فعل المعاصى بعد أن أقدرهم على ذلك بسلامة الأدوات وصحة الأبدان، لأنه سبحانه عدلٌ، فلا يكلف نفسًا إلا وسعها، وأنه سبحانه تفضل على من يشاء فحبَّب إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان تفضلاً منه ونعمة، وأنه لم يضل إلا الضالين والفاسقين والظالمين والكافرين، فهدى من اهتدى، وضل من أضل نفسه بسلوكه سبل الضلالة والغواية، وليس لأحدٍ أن يعترض على الله فى شيء من تدبيره، ولا إنكار شيءٍ من أفعاله، لأنه سبحانه حكيمٌ، قبل أن يفعل سائر الأفعال، وأن جميع أفعاله لا تخرج عن الحكمة، وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على الأمة بأيديهم وألسنتهم، إن استطاعوا ذلك، وإلا

فبقلوبهم، وأنه لا يجب ذلك عليهم بالسيف، ولا بالقتال، إلا فى اللصوص والقطاع بعد مناشدتهم.

الإيمان بجميع الأنبياء وكتبهم:

كما أجمعوا على وجوب الإيمان بكتب الله المنزلة على رسله، كصحف إبراهيم، والتوراة، والإنجيل، وزبور داود، والقرآن الكريم، وإن إنكار الواحد منها كالإنكار لجميعها، وإن كلها كلام الله منه بدأ وإليه يعود، وأن ما نالته يد التحريف منها ليس مما نزل به وحيه على رسله، وما صح منها يصدق بعضه بعضًا، وأن القرآن آخرها جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتب السابقة؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى: ١٨-١٩].

وكذلك يجب الإيمان بجميع النبين والمرسلين، ما ورد ذكرهم فى القرآن الكريم تفصيلاً، ومالم يرد ذكره إجمالاً، فلا نفرق بين أحد من رسله، وتكذيب الواحد منهم كالتكذيب لجميعهم، وهم أفضل الخلق وأكرمهم على الله، ومنهم أولوا العزم الذين ورد ذكرهم تفصيلاً فى القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى: ١٣].

وقد أيد الله جميعهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، فى دعوتهم إلى الله برسالاته ووحيه، وأنهم معصومون من الدنايا والخطايا كبيرها وصغيرها بعد بعثتهم، وذلك بحفظ الله لهم وعصمتهم من القبائح، وهم موصفون بأحسن الأوصاف وأفضلها، من الصدق، والفطانة، والتبليغ، والأمانة، ويستحيل فى حقهم الكذب، والخيانة، والسهو والنسيان فى التبليغ، وشأن الدعوة والرسالة، وهم كبقية البشر يمرضون ويصحّون ويجرى عليهم ما يجرى على غيرهم، من الفقر، والمرض، والأكل، والشرب، والنوم والزواج، والإنجاب، والحياة، والموت، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].

وهم فى الأفضلية على ترتيب القرآن لهم، قال تعالى: ﴿۞تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣]، أفضلهم أولو العزم، وأولو العزم منهم خمسة أشارت إليهم ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣]، وأفضل أولو العزم محمد ﷺ وهم جميعًا أخوه علات دينهم واحد وهو التوحيد والإسلام، وأمهاتهم شتى، وخص الله كل رسول بمعجزة تأييدًا له وتصديقًا له فى دعوته، فكانت معجزة إبراهيم فى عدم إحراق النار له، ومعجزة موسى تعددت مظاهرها من العصا واليد، ومعجزة عيسى إبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى، وكلها كانت معجزات حسية، ومؤقته انقضى أثرها بانقضاء زمانها أما خاتم الأنبياء محمد ﷺ فقد أيده الله بما سبق لإخوانه من الأنبياء بمعجزات حسية، كتسبيح الحصى، وتكثير الطعام، والإسراء والمعراج، ثم أيده بمعجزة معنوية، خالدة خلود الأبد، وهو القرآن الكريم، فوجب الإيمان بها جملة وتفصيلاً.

وأجمعوا على السمع والطاعة لأئمة المسلمين، وكل من ولى شيئًا من أمورهم عن رضى أو غلبة، واشتدت وطأته من برٍ وفاجرٍ لا يلزمهم الخروج عليهم بالسيف جار أو عدل، وعلى أن يغزو معهم العدو، ويحج بهم ويصلون خلفهم؛ الجمع، والأعياء، والجماعات.

وأجمعوا على أن خير القرون، قرن الصحابة ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وخير الصحابة أهل بدرٍ، وخير بدرٍ العشرة المبشرون بالجنة، وخير العشرة الخلفاء الراشدون الأربعة، وأن ترتيبهم فى الفضل حسب ترتيبهم فى الخلافة، أبو بكر، فعمر، فعثمان، فعلىّ، وأن إمامتهم كانت عن رضى منهم جميعًا، وإن جيل الصحابة، خير من جيل التابعين، وأجمعوا على الكف عما شجر بين الصحابة، فلا يذكرون الصحابة إلا بخير، وأنهم أحق أن تنشر محاسنهم، وتتلمس لهم أحسن

المعاذير وأفضل المخارج لأفعالهم، وأن نظن بهم الظن الحسن لقوله ﷺ: «إذا ذكر أصحابى فأمسكوا» [رواه مسلم ١٨٨/٧ باب تحريم سب الصحابة].

وقوله: «لاتؤذونى فى أصحابى فوالذى نفسى بيده لو انفق أحدكم مثل أحدٍ ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» [رواه البخارى بلفظ مختلف ٨/٥ كتاب أصحاب النبى ﷺ].

وما وقع بينهم من خلافات دنيوية لا يسقط حقهم فى الفضل والخير، وأجمعوا على وجوب النصيحة للمسلمين، وأئمتهم والدعاء لهم، والتبرى من ذم أحدٍ من أصحاب رسول الله وأهل بينه. يقول أبو الحسن الأشعرى: "فهذه الأصول التى مضى الأسلاف عليها، واتبعوا حكم الكتاب والسنة بها، واقتدى بهم الخلف الصالح فى مناقبها، نفعنا الله وإياكم باجره، والحمد لله وحده، وهو حسبى ونعم الوكيل [راجع الرسالة ص.٩٩].

وهذه المسائل التى ذكرها الأشعرى تمثل ثوابت العقيدة الإسلامية التى أجمع على الإيمان بها سلف الأمة، وهذه الأصول الإيمانية لا مجال فيها للقول بالرأى والاجتهاد، وقد حفظ القرآن الكريم لنا هذه الأصول، وتلقتها الأجيال بالقبول جيلاً بعد جيل، واستقرت عليها كلمة المسلمين، ولا يجوز لأحد إن يتقدم بين يدى الله ورسوله؛ بالقول فيها بالزيادة عليها أو النقص منها، بل كلهم مجمعون على الإيمان بها، فجزأهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

الإيمان نداء الفطرة السليمة:

إن فى كل إنسان خلقة مفطورًا على لون من المعرفة الفطرية التى يميز بها بين ما ينفع وما يضر، ومن أوائل هذه المعرفة محاولة التعرف على مَنْ خلق.

وهذه المعرفة الفطرية طبيعة مركوزة فى كل نفس مؤمنة أو كافرة، والنفوس تحسُّها بطبعها، وتشعر بها، وإن غابت عنها فى بعض الأحيان لسبب طارئ، فسرعان ما تجد نفسها مضطرة إلى اللجوء إليها عند الشدائد، ولو لم تكن النفوس مفطورة على هذه المعرفة لما تطلعت إليها؛ بل لم تكن مطلوبة لها أصلًا.

وهذه هى الفطرة التى أخبر بها الرسول ﷺ بقوله: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه» [صحيح البخارى: ح١٣٨٥].

وقد يطرأ على بعض الناس ما يفسد فطرتهم، فتحتاج فى ذلك إلى ما ينير لها السبيل، ويوضح لها الطريق كالتعليم مثلًا؛ ولذلك بعث الله الرسل، وأنزل الكتب؛ ليكمل بها الفطرة، ويذكرها إذا فسدت بما هى مركوزة عليه من طلب الحق، والطفل حين ولادته لا يكون لديه تعقُّل لمثل هذه الأمور؛ لأن الله يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، ولكنه يولد وفى فطرته قوة تقتضى ذلك الحق وتطلبه، وتزداد هذه القوة الفطرية لدى الطفل بحسب ما يستطيع تحصيله من العلوم النافعة، كلما ازداد الطفل علمًا، وكلما ازداد إرادة ازداد معرفة بخالقه ومحبة له.

وهذا دليل على أن النفوس مفطورة على الاعتراف بربها [العقل والنقل: ٨٣/٤ مخطوط رقم ١٨٢ عقائد تيمور].

وهذه الفطرة سابقة على جميع ألوان التربية التى يتلقاها المرء عن بيئته فى شتى المجتمعات، وهذا يقتضى بالطبع أن العقل الذى يعرفون به التوحيد حجة مع كل أحد فى بطلان ألوان الشرك، ولا يحتاج الأمر فى ذلك إلى واسطة.

ولو لم يكن فى الفطرة أساس يعتمد عليه فى الأدلة التى يعلم بها إثبات الصانع لم يكن فى مجرد الرسالة حجة عليهم؛ لأن الرسالة جاءت للتذكير بالربوبية، والدعوة إلى توحيد الألوهية، وهذا من أقوى حجج الله على عباده يوم القيامة.

والإلحاد الذى وقع فى جميع الأمم يناقض تمامًا منطق هذه الفطرة، كما يناقض هذا الاعتراف الذى نبَّه إليه القرآن فى كثير من آياته التى تتحدث عن المشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]،﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، كما سجل القرآن اعترافهم بذلك فى أسلوب الاستفهام التقريرى الذى يتضمن وقوع المستفهم عنه سابقًا كما فى قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠ أَمَّن جَعَلَ

ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٣ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٠-٦٤].

وفى مقام الإجابة عن كل هذه التساؤلات المعجزة نجد أن القرآن يجيب على نفسه فى أسلوب التحدى والإعجاز: ﴿ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

فجميع هذه الآيات تضع الإنسان مباشرة أمام هذه التساؤلات التى لا مناص له إزاءها من الإقرار والتسليم بمقصودها وهو الاعتراف بالخالق.

وهى أدلة سمعية وفى نفس الوقت عقلية وشعورية ونفسانية، لا يسع العقل السليم إلَّا أن يسلم بها، ولا الإحساس إلَّا بالشعور بمضمونها، ولا النفس إلَّا الرضى والتسليم بها.

ثم إن القضايا التى تطرحها هذه الآيات أمام الإنسان هى قضايا عقلية لا بد أن يطرحها كل إنسان على نفسه من حين إلى آخر، كما أنه لا بد له من الإجابة عليه بصورة أو بأخرى وفى معرض إجابته على كل هذه التساؤلات يجد نفسه مضطرًا إلى الاعتراف بوجود الله.

الإيمان ضرورة نفسية:

لا شك أن التوازن النفسى من أهم السمات التى تميز الشخصية السوية فى السلوك وفى التفكير، والتوازن النفسى مظهر إنسانى يعمل على إبرازه والتحلى به عاملان مهمان جدًّا:

الأول: الاستقرار والأمان والسكينة. وهى علامات ومظاهر خارجية، يلاحظها الناس على الشخص الذى يتميز بهذا التوازن النفسى، وتنعكس هذه المظاهر النفسية على سلوك الشخص وفى حديثه وتفاعله مع الآخرين، وطريقة كلامه؛ حتى إنك بمجرد أن ترى شخصًا موصوفًا بهذه الصفات، وتبدو عليه هذه المظاهر تضفى عليه هذه الصفة «الهدوء النفسى» أو «التوازن النفسى».

أما **العامل الثانى: فهو الاطمئنان القلبى**، الذى يظهر أثره فى منهج التفكير وطرائق التعبير عما يدور فى القلب من أفكار، وإذا كان العامل الأول يظهر أثره فى السلوك الشخصى، فإن العامل الثانى ينعكس أثره على العقل والإدراك، بحيث يتصل العامل الأول بالنفس الإنسانية وآثارها على الجسم الإنسانى، بينما يتصل العامل الثانى بالعقل وطرائق تفكيره فى تحصيل اليقين الذى ينبنى عليه اطمئنان القلب ويقينه، وهذا العاملان من أهم عوامل تحقيق السعادة للإنسان.

إن النفس الإنسانية بحاجة إلى الإيمان بالوحى؛ لكى يأخذ بيدها إلى شاطئ النجاة مستعينة فى ذلك بيقين الاعتقاد وسلامة الإرادة ونبل المقصد، وتستمد عونها من الله؛ حتى لا تلعب بها عواصف الأهواء. وقال ﷺ: «اللهم لا تِكلْنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك» [سنن أبى داود: ح٥٠٩]، وقال بعض الحكماء: نفسك إذا لم تجبرها على فعل الخير والطاعة جبرتك هى على فعل الشر والمعصية؛ ولذلك كانت الاستعانة بالله على قهر النفس دعاء نتقرب به إلى الله فى فاتحة الكتاب وفى الصلوات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وينبغى أن نعلم أن النفس الإنسانية لا تنتمى فى أصلها إلى عالم الشهادة؛ حتى تستطيع أن تتعامل معها بمنطق العلم الحسى، ولكنها تنتمى إلى عالم الغيب كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١-٧٢].

وقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧-١٠]. ولما كانت النفس تنتمى إلى هذا العالم الغيبى كانت عللها وأمراضها غائبة عن كثير من ذوى العقول، خاصة أصحاب هذه العقول التى تعودت على المحسوسات ولم تتجاوزها إلى غيرها، وبالتالى فإن علاج هذه الأمراض النفسية قد غاب عنهم فى معظم الأحيان؛ وذلك لغيابهم عن فهم حقيقة النفس الإنسانية، ودعك من الذين يعالجون الأعراض المرضية وظواهرها ثم يتوهمون أنهم بذلك قد عالجوا أمراض النفس... لا... إن هناك فارقًا كبيرًا بين علاج الأعراض وعلاج الأمراض ذاتها. إن النفس الإنسانية إحدى مواطن التحدى والإعجاز فى الكون كله. ولقد أقسم القرآن بها لأهميتها ولما فيها من مواطن الإعجاز ودقة الصنعة.

والسكينة والاطمئنان من علامات النفس الصحيحة السليمة من الأمراض؛ وذلك كلها لا يتأتى لها إلَّا بالتعرف على عوامل الاطمئنان والسكينة من هدى الوحى ومن نور النبوة، وتستمد النفس علاجها لأمراضها من هذا النور الذى هو فى حقيقة الأمر شفاء لما فى الصدور، كما قال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ودائمًا ما ينبه القرآن الكريم إلى الأخذ بمبدأ الوقاية من المرض قبل نزول العلة بالنفس، فيستحكم الداء، ويستعصى الدواء، ومن أهم هذه الوسائل الواقية: اللجوء إلى الله تعالى، والاستعانة به، والإنابة إليه، وحسن التوكل عليه؛ فقد كان من دعائه ﷺ: «اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين، ولا أقل من ذلك» [سبق تخريجه]، كما كان ﷺ يستعيذ بالله من شرور النفس فى قوله: «نعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا» [الدعاء للطبرانى: ح٩٣٣ بنحوه]؛ لأن قوة الشهوة وغلبة الهوى لا يعين على التغلب عليها إلَّا الله، فهو المعين وحده على هوى النفس وقهرها، وبذكره وحده تطمئن القلوب، وتسكن النفوس، فتعرف النفوس أنه لا ملجأ لها إلَّا إليه، ولا عون لها إلَّا به.

كما ينبغى أن تعلم أن المجتمع كله فى حاجة ضرورية إلى الوحى؛ ليقوده إلى التعرف على غاياته الكبرى ومقاصده السامية التى تتمثل فى علاقة الإنسان بخالقه، علاقة المخلوق بالخالق، وهذا أمر مقصود من الشارع، أن يتعرف الإنسان على أومر الله ونواهيه؛ ليستطيع أن يحقق بذلك عبوديته لله وحده؛ ليعرف كيف يتخلص من العبودية لغير الله؛ ليعرف أن كل بنى آدم أمام الله سواء، تحقيقًا لمعنى العبودية المطلقة للخالق ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]؛ ليعرف كيف يتحقق فى سلوكه وعلاقاته مع الله ومع الناس بمعانى

التوحيد الخالص لله ربوبية وألوهية، فيستمد عزته من عزة خالقه، وسلطانه من قوة إيمانه بخالقه، فيتضاءل أمامه كل سلطان وعلى قدر اعتصامه بهذه المعانى، فإن الله يخلق هيبته فى قلوب الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس، وعلى قدر خشيته لله يخشاه الناس، وهذا هو حبل الله المتين الذى قصد الشارع الاعتصام به والالتفاف حوله، فتتحد الأهواء وتتوحد المقاصد والغايات، ويكون هوى الناس تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، وهذا التوحد يعود نفعه على المجتمع بالدرجة الأولى، حتى وأن بدا فى ظاهره أنه من العبادات الدينية، فإنه ينعكس على سلوك الأفراد سكينة فى النفس وأمانًا فى القلب ومودة وتراحمًا بين الناس.

والله أعلم

أ.د/ محمد السيد الجليند

المصادر

(١) القرآن الكريم.

(٢) ابن ماجه.

(٣) الإبانة، لأبي الحسن الأشعري، تحقيق د. فوقية حسين.

(٤) الإرشاد، للجوينى.

(٥) أصول أهل السُّنة والجماعة المسماة برسالة أهل الثغر، للأشعرى، بتحقيق محمد السيد الجليند.

(٦) إلجام العوام عن علم الكلام، للغزالى، بتصحيح محمد مصطفى أبو العلا مدير التعليم بالأزهر.

(٧) الإيمان، لابن تيمية.

(٨) التمهيد، للباقلانى، تحقيق د محمد عبد الهادى أبو ريدة.

(٩) رسائل العدل والتوحيد، (مجموعة من المعتزلة)، بتحقيق محمد عمارة، ط دار الهلال، مصر.

(١٠)سنن الترمذى.

(١١)الشامل فى أصول الدين، للجوينى، بتحقيق د. جمال عبد الناصر، ط دار السلام، مصر.

(١٢)شرح الأصول الخمسة، المنسوب للقاضى عبد الجبار.

(١٣)صحيح البخارى.

(١٤) صحيح مسلم.

(١٥) طبقات المعتزلة، بتحقيق فؤاد السيد.

(١٦) العقيدة النظامية، للجوينى، ط بيروت.

(١٧) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، للغزالى، ط مكتبة الجندى، بتصحيح محمد مصطفى أبو العلا مدير التعليم بالأزهر.
(١٨) القسطاس المستقيم، للغزالى، ط القاهرة، بتصحيح محمد مصطفى أبو العلا مدير التعليم بالأزهر.
(١٩) لسان العرب، لابن منظور.
(٢٠) اللمع للأشعرى، ط حمودة غرابة.
(٢١) المحيط بالتكليف، للقاضى عبد الجبار.
(٢٢) مسند الإمام أحمد.
(٢٣) المغنى، للقاضى عبد الجبار، ط مجمع اللغة العربية، مصر.
(٢٤) مقالات الإسلاميين، للإمام الأشعرى، بتحقيق ريتر.

الفهرس

الإيمان ١
(أ) الدلالة اللغوية: ١
(ب) المفهوم الشرعى: ٢
مفهوم الإيمان فى الكتاب والسُّنة ٣
[١] الإيمان والإسلام: ٤
الإيمان يزيد وينقص: ١١
موقف الفرق من الإيمان: ١٣
السلف والمحدثون: ١٣
رأى الشيعة: ١٤
(أ) الشيعة الروافض: ١٤
(ب) الزيدية: ١٤
(٢) الخوارج: ١٤
المرجئة: ١٥
المعتزلة: ١٦
الأشاعرة: ١٧
الماتريدية: ١٨
الاستثناء فى الإيمان: ١٩
القول فيما أجمع عليه أهل السُّنة والجماعة فى المسائل الخلافية: ٢٠
الإيمان بالغيب: ٢٣

الإيمان بالقدر:..... ٢٤
الإيمان بجميع الأنبياء وكتبهم:..... ٢٦
الإيمان نداء الفطرة السليمة:..... ٢٨
الإيمان ضرورة نفسية:..... ٣٠
المصادر ٣٤